شهيد السماء

« مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صدقوا ما عاهدوا اللهَ »
« عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر »
« وما بدلوا تبديلا ٥ ليجزي اللهُ الصادقينَ بصدقهم »

obeikandl.com

(١)

الحياة فى يثرب لا يزال يكتنفها اللغط ، منذ تسامع الناس فيها نبأ أولئك الأنصار الذين توجهوا إلى مكة منذ قليل فى غفلة منهم ، ليبايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة ، حيث أعلنوا له السمع والطاعة ، وحيث عاهدوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، ويحاربوا فى سبيله الأبيض والأسود والأحمر من الناس..

وصارت دار أسعد بن زرارة فى يثرب مثار الغضب ، حيثما مر بها الناس أفراداً وجماعات ، فهو السيد الجليل الذى أعلن إسلامه لله ، وإيمانه برسوله ، وغدا ذائداً عن ضعفاء المسلمين من أهل العقبة بما يتمتع به من جاه فى قومه ، وسلطان فى عشيرته . . حتى صارت هذه الدار تعج بالمسلمين من أهل يثرب فى الصباح وفى المساء ، دون ماخوف من فتنة ، أو خشية من بطش أو عذاب .

وطرق مصعب بن عمير رسول رسول الله ﷺ باب يثرب .. واستقر فى دار أسعد بن زرارة يعلم المسلمين أمر دينهم ، ويحيطهم بأركان الإسلام وتعاليم رسالته ، ويبث فيهم من فيض روحه وأخلاقه . . . حتى ذكت فيهم نار العمل لإعلاء لوائه ونشر مقوماته .

* * *

وخرج به أسعد يوما يريد ديار أخواله بنى عبد الأشهل وديار بنى ظفر ، ذينك الحيين الخطيرين من أحياء العرب ، طمعا فى هدايتهم وإنابتهم ، فهو يعلم أن ضوء الإسلام لو سرى بين جوانحهم لآمن

من ورائهم أهل يثرب من العرب جميعاً ..

وبينما هما يجلسان فى حائط وحولهما نفر من أسلم ، إذ سمع بأمرهم سيدا عبد الأشهل ، سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، فأخذ منهما الغضب كل مأخذ ، واستبد بهما الضيق أيما استبداد ، ولم يملك سعد بن معاذ إلا أن قال لأسيد :

— لا أبا لك ، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا إلى دارنا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة من حيث قد علمت ، كفيتك ذلك .. فهو ابن خالتى ، ولا أجد عليه مقدما .

واستل أسيد حربته ، وأقبل عليهما مغضبا ، يملأ البغض كل وجهه ، فما رآه أسعد مقبلا على حاله ، حتى همس فى أذن ابن عمير يقول :

— هذا سيد قومه ، قد جاءك فاصدق الله فيه !!

فقال مصعب :

— إن يجلس أكلمه !

وصاح أسيد فيهما شاتما ، يقذف لسانه اللعنة قذفا ، حتى كاد البعض أن يفر خوفا .. بينما جلس مصعب وأسعد كالجبابين الراسيين لا يعيرانه التفاتا ، ومن ثم أخذته رعدة غضب أخرى ، فلم يملك أن قال :

— ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا .. هيا فاعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ..

فأجابه مصعب بصوت وقور ، فقال :

ـ أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره . !؟

وأخذت أسيد بن حضير بلاغة الحجة ،فقال لمصعب :

ـ أنصفت . .

ثم جلس وركز حربته ، وأصاخ بإذنه إلى ما يقول مصعب . .

وتفجرت من قلب ابن عمير ينابيع الحكمة ، فقرأ عليه القرآن غضا طريا ، وقدم له الإسلام خالصا نقيا ، يضيء من جوانبه نور الهداية والسلام ، وتشع من نواحيه أضواء الحق ، لتبدد من القلب المشحون بالبغضاء لرسالة التوحيد ، كثيراً مما يغشاه من جاهلية وظلام . .

واستمر ابن عمير فى حديثه وأسيد صامت مسبل العينين ، لايدرى أهو فى الأرض بين الناس ؟ أم فى السماء بين الملائكة . . وكأن ابن عمير قد أدرك ما اكتنف جوانب الرجل من النور ، فتوقف عن الكلام لينظر بماذا يجيب ! !

وتفتحت أسارير أسيد بن حضير ، وأشرق وجهه بالرضى فقال :

ـ ما أحسن هذا الكلام وأجمله !! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ! ؟

وأجاب ابن عمير فقال :

ـ تغتسل فتطهر ، وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله .. وتصلى ..

وقام أسيد من فوره فاغتسل وطهر ثوبيه ، ثم عاد ليشهد أمام ابن عمير وابن زرارة شـــهادة الحق . . وصلى ركعتين ! ! ثم أقبل بوجهه كله عليهما ، وأمسك بفخديهما وقال :

ـــ إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن . . سعد بن معاذ . .

ثم أخذ حربته وانصرف .

• • •

وبينما سعد جالس وسط حلقة كبيرة من قومـــه فى ناديهم ينتظرون . . وقد طالت بهم الساعات يتحدثون من خلالها عن أمر المسلمين ، وما ينبغى أن يقابلوا به من الشدة والتنكيل ، إذ أقبل عليهم أسيد بن حضير ، فما نظر إليه سعد من بعيد حتى قال :

ـــ أحلف بالله لقـــد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم . ! !

وما أن استقر به المجلس وسطهم ، حتى سأله ابن معاذ فقال :

ـــ ما فعلت مع الرجلين ؟

فأجابه أسيد وقد تجمعت فى وجهه علائم الحزم ، فقال :

ـــ كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ! ! وقد نهيتهما فقالا : نفعل ما أحببت ، !

وفغر ابن معاذ فاه ، بينما أخذ الجلوس يلغطون . . خـــاف ابن

حضير أن يصيب الرجلين من غضبهم مكروه ، فدبر فى ذهنه حيلة يدفع بها سعدا كى يجتمع بهما . . فلجأ إلى داعى العصبية ليحرك به ذات نفسه ، فزعم له أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، لأنهم يعرفون أن ابن زرارة هو ابن خالة سعد بن معاذ . . ثم أردف يقول :

— إنما أراد بنو حارثة ذلك ليحقروك !!

وقام سعد كالليث الهائج ، ليدرك ابن خالته حتى لا يصيب القبيلة بقتله عار . . فأخذ حربته وصار يجرى ، ومن خلفه كل من كان فى حضرته من بنى عبد الأشهل . . فما أن وصل إلى المكان حتى أدرك مارمى إليه أسيد ، فنال منه الغيظ ، واشتد به الضيق ، فضرب الأرض بحربته فاندفن سنانها ، ونظر إلى أسعد بن زرارة فى حنق ، وقال :

— ياأبا أمامة ، لولا ما بينى وبينك من القرابة مارمت هـــذا منى . . أتغشانا فى ديارنا بما نكره ؟!

ولم يتفوه أسعد بكلمة ، بينما مال إلى ابن عمير وقال :

— أى مصعب !! جاءك والله سيد من ورائه قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان . .

ورفع مصعب جبينه ، وركز بصره فى وجه ابن معاذ ، وبسط له يده يدعوه إلى الجلوس . . ولكن سعدا كان ما يزال عابس الوجه مقطب الأسارير ، ومن ثم قام إليه مصعب وربت على كتفيـــه ، ومسح ببطن يده ظاهر صدره ، ودعا له بخير . . ثم قاده إلى حيث

كان يجلس ، فما استطاع ابن معاذ إلا أن ينقاد !!

وانطلق لسان ابن عمير ببلاغة الحجة مرة أخرى ، ليسمعها ابن معاذ ، وليسمعها معه من تبعه من رجاله.. كلمة سواء وحجة بيضاء ، لا لبس فيها ولا التواء . .

وكانت يد القدر من خلال الحديث الكريم ، تمس قلب سعد بظاهر نورها وباطن رحمتها . . فما أن انتهى مصعب من كلامه ، حتى زال عن سعد كل ما كان يحيط بنفسه من عوامل البغض والكراهية ، وامتلأ قلبه حبا لله وإخلاصا لرسوله ، وفناء فى دعوة الإسلام . . فانتفض قائما يشرق وجهه بالنور ، ثم التفت إلى من خلفه من قومه ، وأشار إليهم أن يتبعوه إلى داره . . ثم بعث منهم منادياً ليجمع له بنى عبد الأشهل جميعا . . !!

ووقف سيد بنى عبد الأشهل بينهم خطيبا فقال :

— يابنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

فأجابوه قائلين :

— سيدنا ، وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة . .

فأردف كلامه قائلا :

— كلام رجالكم ونسائكم على حرام ، حتى تؤمنوا بالله ورسوله . .

فما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة . .

(٢)

وتناقلت الركبان نبأ إسلام سعد بن معاذ فى يثرب ، فكبر رسول الله ﷺ والمسلمون . . وسرى الأمل فى أوصال تلك الحفنة المعذبة من أهل الإيمان فى مكة . . فقد رأوا فى إسلام سعد أعظم نصر صادف دعوة الإسلام إثر بيعة أهل العقبة .. ورأوا من خلف سعد قوة الحق تتمثل فى إسلام آل بيته من بنى عبد الأشهل ، وهم العصبة التى لا يستطيع معارض أن يقوم فى وجهها ، كانتا من كانتْ قوة ومنعة . .

وانتقل لواء الدعوة فى يثرب من بيت سعد بن زرارة إلى بيت سعد ابن معاذ . . ودخل مصعب بن عمير رسول رسول الله ﷺ ليتربع على عرش الدعوة فى بيت سيد بنى عبد الأشهل ، وليبدأ رسالة الإسلام فى محو آثار الشرك ، بتحطيم الأصنام فى أعظم معاقلها بالأمس . . فى بيت سيد بنى عبد الأشهل نفسه ! !

وتوالت الأيام لتتبوأ رسالة السماء عرشها الأمين فى دارها الجديدة . . لتصبح بعد قليل دار الهجرة لرسول الإسلام والمؤمنين برسالته من أهل مكة . .

وانتقل نور الوجود إلى يثرب ، فاستقبله أهلها بالبشر والترحاب . . ودوت فى الجنبات أصوات الحق ، تردد أصداء الإيمان فى القلوب :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحبا ياخير ساع

وتجلت فى آفاق الكون أعظم آيات الإيثـــار بين المهاجرين والأنصار، وانطبع فى سفر الوجود أصدق صفحات الوفاء بين أهل الإسلام . . فلقد آخى الرسول بين أصحابه الذين هاجروا معه ،وبين أنصاره من أهل المدينة . . فنزل كل مهاجر على أخيه الأنصارى فى أكرم منزل . ، واقتسموا أموالهم ومتـــاعهم عن طيب نفس وأصدق وجدان . . وشطر سيد الأنصار سعد بن معاذ ماله شطرين ، ونزل عن أحدهما لأخيه المهاجر سعد بن أبى وقاص . .

ودارت عجلة الزمان فى سرعة ، لتدعم للإسلام صرح القوة فى عاصمته الجديدة ، فما استدار العام حتى تلظت قلوب المسلمـــين بشوق الجهاد لبعث العزة التى كتبها الله لنفسه ولرسوله وللمؤمنين . .

ونزل قول الله تعالى على رسوله ، مؤذنا بالقتال ، دفاعا عن الحق وردا للعدوان . . وتلاه الرسول الأعظم بين أصحابه عزيزا كريما: « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة

وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور . »

• • •

وخرج المسلمون خلف رسول الله إلى بدر ، ليحاصروا عير الأبي سفيان فى طريقها إلى مكة ، يستردون بها بعض حقهم ، ويتلمسون بها القوة على عدو الله وعدوهم ، ويبدأون بمصادرتها عهد المقاومة لأهل الشرك والكفران . .

وما أن وصلوا فى قلتهم ، حتى علموا بخروج مكة عن آخرها فى جيش لا قبل للجزيرة بمثله قط ، قد تقدمه سادة قريش لم يتخلف منهم أحد ! !

وكانت حقيقة مفزعة ، استقبلتها الحفنة المؤمنة العزلاء ، بقلوب ملؤها الصدق والثبات والفداء .. وأشفق الرسول الأعظم على مصير الإسلام بسحق عصبة الإيمان .. واستشعر حاجته أن يستوثق من أصحابه فى المحنة الكبرى ، وأن يرى رأى الأنصار أنفسهم فى الموطن الخطر خارج ديارهم ، فهو يعلم أن الأنصار قد عاهدوه على الدفاع عنه داخل حدودهم ، وليس خارج تلك الحدود ! !

وتدفق سيل الإيمان من قلوب المهاجرين ، يهدر بصلابة الحق وقوة البأس .. ونطق لسان قائلهم يقول :

— يارسول الله ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى ، اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ! !

ونظر الرسول إلى جهة الأنصار وقال .

ـ أشيروا على أيها الناس . .

فانطلق لسان سعد بن معاذ سيد الأنصار ، يعلن كلمة الوفاء فى ساحة الفداء . . فقال :

ـ والله لكأنك تريدنا يارسول الله ! ؟ لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلق بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ماتقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ! !

وأشرق وجه رسول الله بالنور ، وامتلأ محياه بالبشر والسرور ، وهو يبتسم بالرضى والأمل ، ليقول :

ـ سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين . . والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم ! !

وتقدم الرسول الأعظم وأصحابه من خلفه ، حتى نزلوا ماء بدر . وهنا تقدم إليه سيد الأنصار وقال :

ـ يانبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون ، فيه ، ونعد ركائبك ، ثم نلق عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا من

قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يانبى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك . .

وربت رسول الله على كتف سعد ، وأخذ يدعو له بالخير . . ثم قبل منه رجاءه فى بناء العريش . .

والتحمت الفئتان المتباينتان ، وأطل نصر الله من السماء استجابة لدعاء رسوله الكريم ، وبدأ المسلمون يطيحون بهامات الشرك ، ومن حولهم ملائكة الله يضربون من أعدائه أعناقهم وكل بنان . . كل ذلك وسعد بن معاذ قائم على باب العريش ، متوشحا سيفه ، يخشى على الرسول كرة العدو . . ! !

وضاقت بجحافل الكفر أرض الصحراء بما رحبت ، وبدأ أنصار الله يأسرون أئمة الكفر وأشياعهم . . وهنا رأى الرسول على وجه سعد صفرة الغضب لما يفعل المسلمون ، فقال :

ـ والله لكأنك تكره مايصنع القوم ! ؟

وخرجت من صدر سعد زفرة . . فقال :

ـ يارسول الله . . كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل فى أهل الشرك أحب إلى من استبقاء الرجال . .

* * *

وانتهت وقعة بدر بأحسن نصر فى تاريخ الإسلام ، وعاد الرسول وأصحابه إلى عاصمتهم قريرى العين . . ليستدير بهم العام

إيذانا بالخروج إلى أحد للقاء أعدائهم مرة أخرى . .

وكانت محنة كبرى ، اضطرب من خلالها ميزان النصر فى ركب المؤمنين لمعصية الرماة من أعلا الجبل أمر رسول الله، فاحتاطت قوى الشرك بالمسلمين تحصدهم حصدا . . وفر من فر . . وبقى رسول الله مع حفنة ضئيلة بايعته فى ساعة العسرة عـــلى الموت دونه . . وكان سعد بن معاذ ممن بايع الرسول على الموت . .

وسطر آل معاذ خلف سعد صفحات من الفخار فى سجل الجهاد والاستشهاد . . فقتل عمر بن معاذ دون رسول الله ، فكبر لموته أخوه تكبيرة أذهلت المشركين عـــن الحرب ، وروعتهم عن مواصلة القتال !!

وعاد الرسول إلى عاصمته مرة أخرى ، ليرى عوض الله عن كسب المعركة . . ليراه فى هذه النفوس المطمئنة بالرضى لما قسم الله . . وليراه فى استبشار كل بيت شهيد باستشهاده . . بل وليراه ممثلا فى آل بيت سعد بن معاذ ، حينما وافت أمه هندا بنت سماك أنباء مقتل ابنها عمر بن معاذ . . فما وهنت وما ضعفت وما حزنت . . بل قالت على الفور :

ـ ما عن عمر أسأل . . إنما أسأل عن رسول الله !!

(٣)

وجاء يوم الخندق ، إذ أقبلت قريش بأحابيشها وفخرها ، فى عشرة آلاف مقاتل ، تحاصر رســـول الله والذين آمنوا معه فى المدينة ، ولما يكتمل عدد المسلمين بعد ، ثلاثة آلاف !!

وكانت المحنة التى شمر لها الرسول عن ساعده ، واجتمع لها أنصار الله من حوله ، غير عابئين بالخطر ولا مبالين بالموت يحصرهم من كل جانب .. فبادروا بحفر الخندق حول عاصمة الإسلام ، ليكون معبر النجاة لهم .. ومعبر الموت لأعدائهم ..

وساور رسول الله الخوف من يهود بنى قريظة أن ينتهزوا منه فرصة لينقضوا معه عهدهم بألا يعينوا عليه أحدا من ناحية دورهم .. فنادى ﷺ سيد الأنصار سعد بن معاذ وكان سيد حلفائهم الأوس ، ونادى سيد الخزرج سعد بن عبادة وبعض الصحابة وقال :

— انطلقوا حتى تنظروا أحسن ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، أم لا .. فإن كانوا حقا ، فألحنوا إلى لحنا أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم ، فاجهروا به للناس ..

وانطلق الرجال حيث أمرهم الرسول ، حتى أتوا القوم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم .. بل قابلوهم بالسخرية والتشفى ، وأعلنوا نقض العهد والميثاق ، ثم انطلق بعضهم يحملون السلاح فى وجوههم ، استعدادا لضم صفوفهم إلى صفوف قريش ، فيكونون معها يدا واحدة لاستئصال شأفة المسلمين ..

وأخذت الحماسة بعض كبار اليهود ، فتهكموا على وفد الأنصار قائلين :

— من رسول الله !! ؟ لا عهد بيننا وبين محمد .. ولا عقد !!

ولم يطق سعد بن معاذ صبرا ، وهو القوى الذى تغلب عليه

الحدة فى مواطن الغضب لله ورسوله ، فشاتمهم ونال منهم ، وقد أخرج سلاحه ليكتب فى سجل الفـــداء صفحة بدمائهم . . ولكن أصحابه وقفوا دون اعتزامه ، تلبية لأمر رسول الله ، وقال له سعد ابن عبادة :

— دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة . ! !

وعاد وفد الأنصار ليخبر رسول الله بما كان . .

ونظر الرسول الأعظم إلى آفاق المدينة ، فرأى جموع المشركين ، وقد انتظمت صفوفهم بحافل القبائل من أقصى الجزيرة ومن أدناها ، ثم نظر إلى أصحابه فى قلتهم ، فأخذ منه الإشفاق كل مأخذ . . إنه يرى جنده متحفزين لتلبية إشارة منه ، ليرفعوا راية العزة وعلم الجهاد ، وليقذفوا بأنفسهم فى نار الحرب دفاعا عن كلمة التوحيد فى الأرض . . ورأى من خلال اللحظات الرهيبة نفرا من أصحابه يشاتمون أعداء الله من شاطىء الخندق ، ويلوحون لهم براحات التحدى ، ويقذفون جموعهم بالحجارة ، حتى أخذت بعض المشركين هزة العصبية ، فقذف بجواده من خلال الخندق ، فاجتمع عليه المسلمون فقتلوه ، ثم تناولوا سلاحه وهزوه فى الهواء على مرأى من الأعداء ، وكأنهم يتحدثون بلغة السيف عن مصائر الذين يبغون فى الأرض بغير الحق ! !

وكانت القارعة التى نبضت بها سواعد قريش وحلفائها ، مدوية بصليل السيوف اللامعة ، ومنذرة بعاصفة الموت العاتية ، فأشفق الرسول مرة أخرى ، ورأى فيما رأى أن يكسر مـــن شوكة

المشركين ، فيعرض على أصحابه كتاب غطفان إليه فى ساعة العسرة، ليزل لها عن ثلث ثمار المدينة ، لقاء تركها الميدان . . إنه يرى فى غطفان جانبا عظيما من قوى الشرك ، فهى إن غادرت المعركة .. حل الشقاق بقية الصفوف .. وإنه يرى من خلال ذلك أن يختبر رأى المسلمين ، فأيا مارأوا كان الخـــير فى جانبه .

وجمع رسول الله أصحابه ، وعرض عليهم الكتاب .. وبرر عرضه عليهم بقوله :

ـ إنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما . .

ووقف سعد بن معاذ أمام الرسول ، والناس ينظرون إلى وجهه تتمثل فيه كل أمارات العزم والتصميم ، فقال :

ـ يارسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لانعبد الله ولا نعرفه .. وهم لايطمعون أن يأكلوا منا تمرة إلا قرى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟! والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . ! !

وعلا وجه رسول الله البشر والسرور ، وما ملك أن قال :

ـ فأنت وذاك ياسعد . .

وتسلم ابن معاذ كتاب غطفان من رسول الله ، ليمحو مافيـــه وهو يقول :

ـ ليجهدوا علينا ، ليجهدوا علينا ! !

ودقت ساعة الخطر .. ووقف الجانبان على هاوية الحرب، وبدأ التناوش بين الفريقين المتباينين .. حيث بدأ المشركون يعملون لإجلاء المسلمين عن حافة الخندق ، ليلجوا منه إلى المدينة ، ولكن المسلمين صامدون ، يقابلون القوة بالقوة .. ونساؤهم فى الحصون من ورائهم ..

وتقدم آل معاذ ، ليكتبوا فى صحيفة الفداء صفحة جديدة .. وبرزت أم سعد من فجوة حصن ابن حارثة ، تدفع سعدا إلى النضال، وتدفع معه حفيدها الحارث بن أوس ، وتقول له :

— الحق يابنى ، فقد والله أخرت ..!!

ويرد عليها الحارث من أعماقه وقد حمل سلاحه ، فقال :

ليث قليلا يدرك الهيجا حمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

* * *

ونزل بنو قريظة من صياصيهم ، ليضيفوا إلى سجل غدرهم صفحة سوداء ، وقد جعلوا جل همهم أن يقتلوا سعدا بن معاذ ، وقد رأوه يصول فى ساحة الوغى صولة الأسد .. فتحين له جهان بن قيس بن العرقة ، فرماه من خبائه بسهم قطع منه الأكحل وهو يقول :

— خذها وأنا ابن العرقة .

وانتزع سعد السهم من جسده فسال الدم مدرارا ، فجعل يسده بيده فلا ينسد ، ثم نظر إلى العدو وهو يسرع فى الاختفاء .. وقال :

— عرق الله وجهك من النار ..

ورفع سعد وجهه إلى السماء، ودعا الله قائلا :

ـ اللهم لاتمتنى حتى تشفينى من قريظة ! !

وآذنت شمس النهار بالمغيب، وأقبل الظلام ليلف الأفق بحلكته، ونزل مدد الله من السماء، وهبت الريح عاصفة قاصفة، لاتجعل خيمة لأعداء الله إلا اقتلعتها، ولا قدرا إلا كفأتها، ولا نارا إلا أطفأتها . . ولا عينا إلا أغمضتها، ولا دابة إلا أهاجتها . . حتى استعصى على المشركين أن يجمعوا ركائبهم، ففروا بليل هائمين على وجه الصحراء، وقد انشغل كل بنفسه يريد النجاة . ! اورجع بنو قريظة إلى صياصيهم فتحصنوا فيها . .

ونزل جبريل من السماء ليعلن أمر الله إلى رسوله باللحاق بقريظة، لينزل بها قضاء الله فيها . .

وأحاط المسلمون بحصون أعدائهم، يهتفون بأصوات العزة . . واليهود من ورائها يبكون ويصرخون، وقد ارتد كيدهم إلى نحورهم . . وأخذ كبارهم يتوسلون إلى حلفائهم الأوس كيما يشفعوا لهم عند رسول الله . !!

وأخذت صرخات اليهود من الأوس بزمام العاطفة والرحمة . . فعادوا إلى رسول الله ينظرون أمره، فقال لهم :

ـ ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ ؟

فأجابوه قائلين :

ـ بلى . .

فقال الرسول :

ـ فذاك الأمر إلى سعد بن معاذ . .

وأسرع بنو الأوس إلى سيدهم بالمسجد ، وقد اتخذه منزلا له وهو بين الحياة والموت ، فأخبروه بما كان . . فهب من مرضه ، فأركبوه على حماره ، وأسندوه بأيديهـــم ، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ . .

واحتاط الأوس بسيدهم ، فقالوا :

ـ يا أبا عمرو ، أحسن فى مواليك ، فإن رسول الله إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم !!

فلما أكثروا عليه قال لهم :

ـ لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم . .

وقام المهاجرون والأنصار إلى سعد ، وقالوا :

ـ يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . .

وتقدم سعد بحماره ، حتى اقترب من رسول الله . . ثم نظر إلى جانب المهاجرين والأنصار ، وقال لهم :

ـ عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أن الحكم فيها لما حكمته ؟!

فأجابوه قائلين :

ـ نعم . . إن الحكم فيها لما حكمته .

ثم التفت سعد إلى الناحية التى فيـــها رسول الله ـ وقد أعرض ﷺ عنه إجلالا له ـ فقال :

— وعلى من هاهنا ؟

فأجابه الرسول الأعظم :

— نعم . .

وانطلق لسان سعد كالزئير الرهيب ، فقال :

— إنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء . .

وقام الرسول من قعدته ، ونظر إليه المهاجرون والأنصار ، لينتظروا كلمته ، فقال ﷺ للناس . . وهو ينظر إلى سعد :

— لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سماوات !

وتمت كلمة الله فى الخائنين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا . .

ونظر سعد إلى السماء مرة أخرى وهو يمسك جرحه الذى يتفجر بالدم ، ودعا ربه على ملأ المسلمين قائلا :

— اللهم إنك تعلم أنه ليس شىء أحب إلى من أن أجاهد فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه . . اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فإن كان بقى من حرب قريش شىء ، فابقنى لهم حتى أجاهدهم فيك . .

ثم نظر إلى جراحته المتفجرة بالدماء ، واستأنف دعاءه ربه قائلا :

— وإن كنت قد وضعت الحرب فيما بيننا وبينهم ، فافجرها واجعل موتتى فيها . . !!

واشتد الألم بسعد ، واستبد به الإعياء ، فاحتمله المسلمون إلى

داره فى بنى عبد الأشهل . . ودخل عليـــه الرسول ليعوده فرأى جرحه قد انفجر ، فاقترب منه ﷺ ليعالج من أمره ، فاعتنقه سعد فنقع الدم فى وجهه الشريف . .

وتطلع الرســـول إلى السماء ليرثى سعداً عند ربه ، وليشهد له بالبر والوفاء ، فقال :

ـــ اللهم إن سعداً قد جاهد فى سبيلك وصدق رسولك ، فتقبل روحه بخير ما تقبلت به روحا . .

واستيقظ سعد من إغفاءة الموت على دعاء رسول الله فقال :

ـــ السلام عليك يارسول الله . . أما أنافأشهد أنك رسول الله . .

وغادر رسول الله دار سعد إلى داره باكيا حزينـا . . ودخل الليل ، وهدأت الكائنات فى أطيافه ، ونزل جبريل الأمين على رسول الله فأيقظه وقال :

ـــ يامحمـــد ؛ من رجل من أمتك مات الليلة ، استبشر بموته أهل السماء ؟ !

وطرق أذن الرسول صوت المنـادى ، ليعلن فى آفاق المدينـة استشهاد سعد بن معاذ . .

وانطلق رسول الله إلى دار بنى عبد الأشهل مسرعا ، والمسلمون من ورائه لايستطيعون اللحاق به . . فقـالوا له :

ـــ يارسول الله قد أجهدت الناس . .

فأجابهم ﷺ قائلا :

ـــ إنى أخشى أن تسبقنـا إليه الملائكة ، كما سبقتنا إلى حنظلة . .

ودخل الرسول وحده إلى ســـعد ، وهو مسجى فى سريره .. واستمع إليه الناس وهو يقول :

ــ هنيئا لك أبا عمرو ، هنيئا لك أبا عمرو ، جزاك الله خيراً من سيد قوم ، فقد أنجزت الله ماوعدته ، ولينجزك الله ما وعدك ..

وارتفع صوت أم سعد بالبكاء ، ترثى شباب ولدها الذى لم يتعد السابعة والثلاثين من عمره .. وهى تقول :

ويل أمك سعـــد صرامة وجـــد

فقال لها بعض المسلمين :

ــ أتقولين الشعر على سعد ؟ فقال النبى ﷺ :

ــ دعوها ، غيرها من الشعراء أكذب !!

واحتمل المسلمون جسد سعد وأنزلوه إلى قـــبره ، فتغير وجه الرسول ، وسبح ثلاثا ، فسبح المسلمون من خلفه ، حتى ارتج البقيع ، ثم كبر الرسول ثلاثا ، وكبر من خلفه المسلمون حتى ارتج البقيع مرة أخرى !! فسأله بعض المسلمين عن ذلك ، فأجابهم النبى بقوله :

ــ تضايق على صاحبكم قبره ، وضم ضمة لو نجا منها أحد ، لنجا سعد ..

وسمح الرسول الأعظم لأم سعد أن تلقى على ابنها نظرة الوداع ، وهى تقول :

ــ ياسعد ، لقد احتسبتك عند الله ..

وسوى رسول الله قبر سعد بيديه ، وأهال عليه التراب ، ورش الماء على مثواه .. ثم استقبل ربه ليـــدعو لسعد بعز الآخرة مع الخالدين ، فى منازل الشهداء والصالحين .